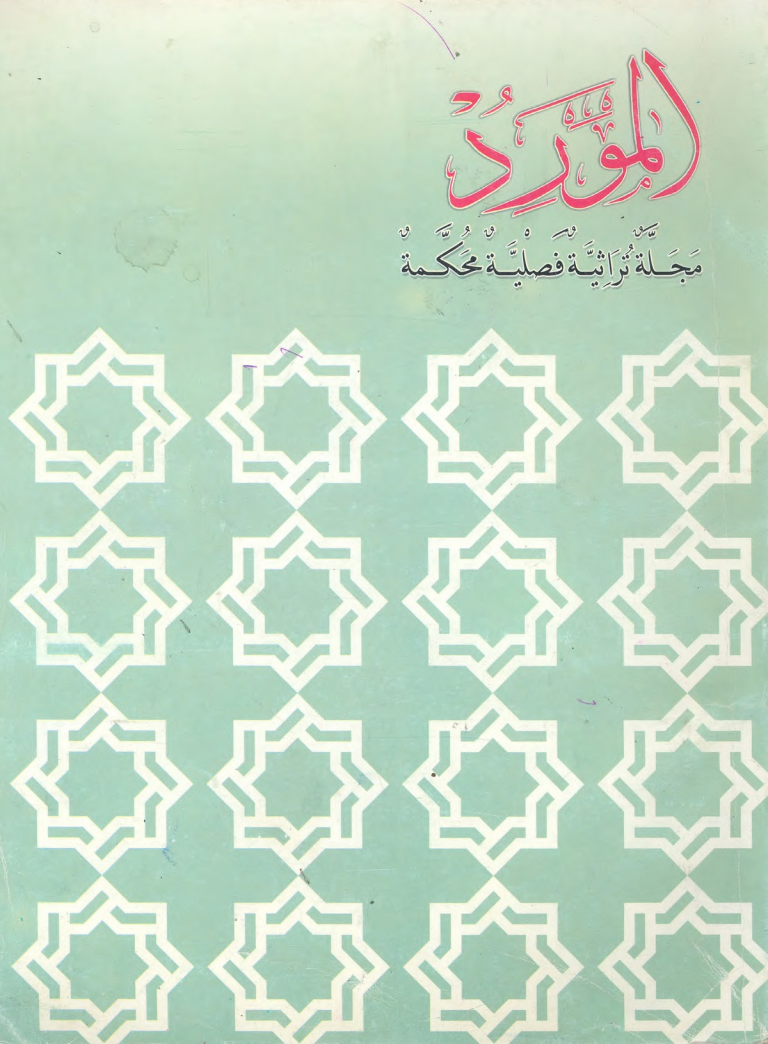
المورد
مجلة تراثية فصلية محكمة

هل يعرف اللغز الدفين في كتاب الاغاني ثانية

بقلم الدكتور

داود سلوم

استاذ النقد الادبي في جامعة بغداد

لا أحب الدعاوى العريضة ، ولا اريد ان ادعي شيئا • والمفروض في الاكاديمي ان يكون اتقل خلق الله دما وروحا وجسما وحكما •

ولا أريد ان اكون اتقل خلق الله حكما ، اما الدم والروح والجسم فاريد فيها ان اكون مثل الناس اقول ويقال لي ، وان اضحك واحزن واتألم ، ولا اريد ان اكون صخرة متحركة في متحف حديث •

ليس هذا هو الموضوع ، ولكن الموضوع هو كتاب الاغاني وانغامه الدفينة • هذا اللغز الغامض الذي لا زال منطرحا امامنا اكثر من الف عام ونحن حائرون ماذا نفعل به ، ونتسائل : هل فقدنا صلتنا بالحان كتاب الاغاني الى الابد ؟ او هل هناك من سبيل تكشفه الايام للوصول الى حل لهـذا اللغز الفني العويص ؟

الشك في كل ما يقال عن هذا اللغز اكثر من اليقين ، والسبب ان الاكاديمي من اتقل خلق الله حكما ، فهو لا يريد الا الثابت والواضح والراسخ من الحكم والصائب مائة بالمائة •

ولكن لماذا لا نفترض ؟ ولماذا لا نتخيل ؟ ولماذا لا نحاول ؟

سوف افترض واتخيل واحاول ولكن لـن ادعي ، فهذا ليس بمرضي في سلوك الجامعيين •

وبعد هذه المقدمة والاستدراج للقارىء العزيز ، فاني اريد ان اخبره باني سوف افترض حلا لالحان كتاب الاغاني مستعينا بالنصوص التي بين يدي •

واني اعرف انى امام حقيقتين اثنتين وهما :

اما أن أكون قد وقعت فعلا على حل سليم لمرض لهذا اللغز وهذا يبين حالما يطبق الحل ويستخدمه الموسيقيون للتجربة واما ان اكون جاهلا ، لا ادرى عما اتكلم • وهذا شيء محتمل ايضا ، ولكن ارجو الا يغضب هذا احدا وان يترك لي مجال القول باني لم اقل اني وجدت الحل الصحيح وان اتراجع فى الوقت المناسب تراجع الباحث المخلص الذي لـم ينته الى نتيجة قاطعة لعدم توفر الادلة التاريخيـة ونقف عند هذا الحد ! فلا تجريح ولا تعـديل ! وليكن القارىء على علم باني لا اعرف عن الموسيقى شيئا ولذلك فمن الممكن ان يكون الافتراض خطئا جسيما وقد يكون ضربة مصيبة من ضربات الصدف• أما كيف تتكون الافكار في موضوع ما ، فهـذا في الواقع من عوامل الصدف ايضا فالانسان لا يدرى لماذا يشتري كتـاباً معينـاً ولا يـدري لمـاذا حين يفتـح الكتـاب ينفتـح عـلى صفحـة معينـة وتقع العين على نص بالـذات ، ثـم يختزن النص ، وهكذا ، يفعل ذلك بكتاب وآخر ، واذا

بالفكرة قد ولدت ثم يضع الباحث السؤال ويحاول ان يحرر النصوص لعلها تغطي السؤال الطويل ، فان كانت وافية وتوفر فيها التناسق والمنطق كانت المقالة قد تمت !

وهذه المقالة وليدة الصدف ، ووليدة قراءات موزعة في كتب قليلة مرت بين يدى على فترات متباعدة جدا تتجاوز العشرين عاما ، فمن ايام الطلب حتى اليوم ونحن في عام ١٩٧١ •

وامامي الآن ثلاثة كتب هى : « اشعار اولاد الخلفاء » للصولي (ت ٣٣٥هـ) و « كتاب الاغاني » للاصفهاني (ت ٣٥٦هـ) و « كتاب الفصول والغايات » للمعري (ت ٤٤٩ هـ) وهذه الكتب القليلة هى التى ساعدت على ميلاد هذه الفكرة التي نريد ان نعرضها •

يقول الصولي في خبر من اخبار ابراهيم بن المهدى :

« حضرت ابراهيم بن المهدى واسحق بن ابراهيم الموصلي يتلاحيان في (التجزئة) و (القسمة) في الغناء ، فقلت لهما اراكما توجبان لهما معنيين ومعناهما واحد ، فقال لي ابراهيم لا لوم عليك فيما انكرت من باب (التجزئة) و (القسمة) لان المنطق يوجب ما قلت ، ولكن اصحاب صناعة اللحون اذا ارادوا وضع (صوت) جزأوا شعره على (اجزاء معلومة) و(القسمة) قسمة اللحن على(الاجزاء) .... »

ان هذا النص جعلني ادرك بعض الحقائق البسيطة ولكنها مهمة جدا في قضية الغناء •

اولا : انه لا علاقة بين البحر العروضي في شعر المغنى واللحن وهذا سوف نؤكده بدليل من كتاب الاغانى • فالطويل قد يغنى بلحن الثقيل الاول وخفيفه والثقيل الثانى وخفيفه والرمل وخفيفه والهزج وخفيفه • وهذه هى الالحان العربية الثمانية ، وتجربتنا هنا تصدق على غناء البحر الطويل بالالحان الثمانية • وان الاستقصاء للعلاقة بين الوزن والالحان وبين الاشعار المغناة فعلا والنغم هو الجواب الشافى القطعى في هذا الباب وهذا يحتاج الى مزيد بحث •

ثانيا : ان هناك تقطيعا (غنائيا) وليس تقطيعا (عروضيا) للشعر المغنى • وهذا التقطيع يكون حسب لحن الثقيل الاول والثقيل الثانى والهزج والرمل والخفيف منها • ولا علاقة لذلك بين التقطيع العروضي للشعر وبين التقطيع الغنائى لنفس الشعر • فقد يكون البيت من الطويل عروضيا ولكنه يقطع تقطيعا يلائم مرة الثقيل الاول ومرة الثقيل الثانى او الرمل او الهزج •

ثالثا : حينما يقطع البيت على تجزئات غنائية ثابتة يكسى التقطيع لحنا غنائيا (يقسم عليه) من نفس الباب ، فاذا قطع الشعر على تجزئة الثقيل الاول كسي لحن الثقيل الاول وهكذا •

وهذا معناه ـ وهو مهم لنا ـ ان اللحن العربى لحن غنائى ايقاعى اى لا يوجد اللحن القائم بنفسه ، ولذلك فالعرب لم يعرفوا الموسيقى المجردة لوحدها كالسيمفونية مثلا •

فاللحن يعزف لبيت من الشعر ، وعلى هذا فلا توجد الحان مختلفة وانما توجد اشعار مختلفة موزعة على ثمانية الحان معروفة فقط • فأية قصيدة اذا غنيت بلحن الثقيل الاول سوف تشابه في تقطيعها ونغمها اية قصيدة اخرى وان اختلفت الكلمات فقط •

وان هذه النتائج قادتنا الى نص آخر في كتاب (الفصول والغايات) للمعرى •

فهو في هذا النص يتكلم عرضا عن الالحان الثمانية ، ويحاول وهو البصير الذى لا يقرأ ولكنه يسمع جيدا ان يثبت هذه الالحان بالفاظ ومعنى هذا انه لم يترك لنا ما يسمى بـ « قسمة اللحن » او التوزيع الموسيقي النظرى وانما ترك لنا « تجزئة الشعر » مع اللحن لان اللحن العربى غنائي كما قلنا • وهذا هو الافتراض المهم في المقالة كلها ونريد

ان تنظر في نص ابي العلاء المعرى •

يقول ابو العلاء عن طرائق الغناء ما يلى :

« الثقيل الاول ـ وايقاعه على ثلاث نقرات متساويات الاقدار على مثـــال (مفعولن) »

« خفيف الثقيل الاول ـ وحقيقته ثلاث نقرات متواليات وهى اخف من التى ذكرنا واسرع تواليا كقولك (مفعولن) بلا فصل •

« الثقيل الثانى ـ وقد اختلفوا في ايقاعه :

فاسحق : يوقعه ثلاث نقرات : نقرتان متساويتان ممسكتان وواحدة ثقيلة على وزن (مفعولان)

ومنهم : من يوقعه اربع نقرات متساويات الاقدار لاخفاف محثوثات ولا ثقـــال ممسكات على مثال (مفعومفعو)

ومنهم : من يوقعه اربع نقرات : ثلاث متساويات والرابعة اثقل منهن على مثال (مفعولاتن) ••• »

« خفيف الثقيل الثانى ـ وحقيقته اسرع حثا منه ، وهو نقرتان خفيفتان والثالثة ثقيلة وهو خفيف الذى اختاره اسحق ويسمى (الماخورى) وهو عكس الرمل ووزنه (مفعولان) ••• »

« الرمل ـ وهو نقرة ثقيلة واثنتان محثوثتان (لان مفعو) ومثله في الكلام (مـل وصلي ، صد عني)

« خفيف الرمل ـ جاء على غير جنته وذلك ان خفيف كل نوع مثل ثقيله الا انه اخف حث الايقاع •

فأما الرمل فلم يجىء خفيفه على عدد نقراته ، وهو على نقرتين بينهما فصل ووزنه على مثال (فعلن ، فعلن)

« الهزج ـ وهو على نقرة واحدة ثقيلة واخرى خفيفة على وزن (قال لي) » ـ(مفعولن)•

« خفيف الهزج ـ مثل الهزج الا انه اسرع حثا منه »

فلنفترض لغرض التجربة العلمية المحضة ان ابا العـلاء يتكلم عن النغـم والاغنيـة معاً لان النغم العربى كما قلنا نغم (ايقاعى) لا يعزف الا لاغنية والاغنية لا تغنى الا للحن من اللحون الثمانية •

وفي سبيل تطبيق هذا الفرض علينا ان نجد نصا من بحـر معين عروضيا يمكن أن يصلح لكل هذه الالحان رغم انه نص واحد لنرى الفروق بين تقطيعه العروضي والنغمي حسب الالحان المختلفة •

وعندنا بعد ذلك دعوة لاهل الموسيقى في عصرنا لتجربة التقطيع الموسيقي المفترض لنرى مقدار صحة الافتراض الذى قررناه •

ويرد نص من نصوص كتاب الاغانى الكثيرة وهو من الطويل :

امن آل نعم انت غاد فمبكر
غـداة غد ام رائح فمهجر

ويذكر ابو الفرج ان هذا النص وردت فيه عدة الحان لمعبد وابن سريج وغيرهما وقد غني به من لحن الثقيل الاول وخفيف الثقيل الاول والرمـل وخفيف الرمل والثقيل الثانى والهزج •

وهذه هى التقسيمات المختلفـة للبيت حسب اللحون الثمانية :

التقطيع العروضي : امن آل نعم انت غاد فمبكر
(امن آ) • (لنعمن ان) • (تغادن) • (فمبكرو)

تقطيع الالحان الثمانية : (يجب ان يلاحظ القارىء انه لا علاقة بين الحركة والسكون في الميزان الغنائى وانما هو في عدد الحروف ومحل الفصل بين ضربة وضربة واهملت التنوين وعوضت عنه وعن الحروف الناقصة بنقاط تكمل الميزان الغنائى)

١ ـ الثقيل الاول : مفعولن
امن آل نعم انت غاد فمبكر
(امن آلن)•(عم ان تغ)•(اد فمبك)•(ر••••)

٢ ـ خفيف الثقيل الاول ـ مثل الاول ولكنه اسرع حركة منه

٣ ـ الثقيل الثانى وله ثلاثة الحان ٠

امن آل نعم انت غاد فمبكر

أ ـ مفعو ـ لان

(امن آ ـ لنع)٠(مأنت ـ غاد)٠(فمبكر ـ ٠)

ب ـ (مفعو ـ مفعو)

(أمن آ ـ لنعم) ٠ (انت غ ـ اد فم)٠

(بكر ـ ٠٠)

جـ ـ مفعولا ـ تن

(امن آلن ـ عم) ٠ (انت غاد ـ فم) ٠

(بكر ـ ٠٠)

٤ ـ خفيف الثقيل الثانى (الماخورى ـ لاسحق الموصلى فقط)

مفعو ـ لان (يشبه تقطيعه رقم ٣ قسم أ)

٥ ـ الرمل : لان ـ مفعو

امن آل نعم انت غاد فمبكر

(امن ـ آلنع) ٠ (مان ـ تغاد) ٠ (فمبـ ـ كر ٠٠)

٦ ـ خفيف الرمل : فع ـ لن

امن آل نعم انت غاد فمبكر

(ام ـ ن آ) ٠ (لن ـ عم) ٠ (ان ـ تغ) ٠

(اد ـ فم) ٠ (بك ـ ر ٠)

٧ ـ الهزج ـ فعو ـ لن

ام آل نعم انت غاد فمبكر

(امن ـ آل) ٠ (نعم ـ ان) ٠ (تغا ـ دف) ٠

(مبك ـ ر ٠٠٠)

٨ ـ خفيف الهزج : مثل الهزج الا انه اسرع حثا منه ٠

(ولمعرفة عدد الضربات في لحن راجع النص المقتبس آنفا من الفصول والغايات)

وهنا يصبح افتراضنا سهل التحقيق ٠ امـام الموسيقي المعاصر من خبراء (العـود) ٠ فالموسيقي يعرف عن اللحن ما لا اعرفه ـ فهذه اغنية مقطعة امامه ثماني مرات فهل يتمكن ان يضع اللحن الملائم حسب عدد مرات التقطيع الموجودة امامه ؟ فاذا وضعه فسيكون هو اللحن الدفين دون شك اذا لم يكن هناك غيره او لم يكن هناك خطأ في افتراضنا واذا وضع اللحن الملائم وثبته تمكنا ان نبحث في مدلـــول مصطلحات ابي الفرج الموسيقية التي يذكرها مع اللحن وهذه العملية يمكن ان يقوم بها اما الموسيقي نفسه بمراقبة حركات يده واصابعه او امكانية هذه الحركة واختلافها وتعددها واما ان يقوم بها انسان آخـر يراقب الموسيقي وهو يعمل على آلته ٠

فمن هو الموسيقي يا ترى الذى يتمكن ان يثبت اللحن لهذا النوع من الذبذبة الصوتية في الشعر ؟

وان عملنا هنا من الناحية الاكاديمية اقرب الى الروح العلمية من دراسة اللحن من الخارج ومن كتب لا تقترب من عصر كتاب الاغانى وحاولنا نحن هنا ان نستنتج اللحن من الداخل ، من نفس البيئة والفترة الزمنية ومن اصطلاحات العصر وتعابيره ٠ وحاولنا استنساخ اللحن من التقطيع الغنائى المفترض للكلمة وليس للنغم النظرى كما بحثه الفلاسفة ٠ وتركنا نحن تقطيع النغم في هذا الافتراض لاهـل الموسيقى من المعاصرين ، واني لمنتظر بحماس وشوق ان اسمع صدى او ردا او حسيسا ٠ وان هناك سؤال يتحدى اهل الموسيقى وهو : اذا كان تقطيع كلمات الاغنية بهذه الصورة فما هو اللحن ؟ وهو سؤال وجيه ٠ وان توسيع البحث في الناحية الادبية والتى تقوم على ادراك العلائق بين طبيعة الشعر وعصره واوزانه وبين طبيعـة اللحون الثمانيـة ييسر عـدة اسئلة وضعتها امامى على ورقة ولكنها تحتاج اجابتها الى قراءة دقيقة وبطيئة وتصنيف مرهق لكتاب الاغانى وهذا يحتاج الى الوقت والعمل ويحتاج الى تفـرغ علمى لسنة او سنتين ، واين هذا منى والجرس يحثنى للمحاضرة كل خمس واربعين دقيقة ٠ انه هـادم لذات التأمل والافتراض والحدس والتخمين الى حد كبير ٠٠٠